Al Jinan الجنان

Volume 12 Article 7

2019

الآيات من سورة المائدة التي ورد فيها ما يحبه الله تعالى

Ahmad Obeid
جامعة الملك عبد العزيز, dr.obeid@gmail.com

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan

Part of the Other Classics Commons

Recommended Citation

Obeid, Ahmad (2019) "الآيات من سورة المائدة التي ورد فيها ما يحبه الله تعالى," *Al Jinan الجنان*: Vol. 12 , Article 7.
Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan/vol12/iss1/7

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Al Jinan الجنان by an authorized editor. The journal is hosted on Digital Commons, an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aaru.edu.jo, marah@aaru.edu.jo, u.murad@aaru.edu.jo.

د.أحمد محمد عبيد

أستاذ مشارك – عقيدة ودعوة

كلية الآداب قسم الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الملك عبد العزيز

الآيَاتُ مِنْ سُورَةِ المَائِدَةِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا مَا يُحِبُّهُ اللهُ (دراسَة دعوية)

DOI: 10.33986/0522-000-012-007

مستخلص البحث

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا بحث بعنوان: الآيات من سورة المائدة التي ورد فيها ما يحبه الله (دراسة دعوية).

وقد تناول البحث بالدراسة والتحليل الآياتِ التي ورد فيها ما يحبه الله، وقسّمتها إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (المائدة:١٣).

الفصل الثاني قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (المائدة:٤٢).

الفصل الثالث قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (المائدة:٩٣).

وقد عرّفت بالسورة، وبيَّنت سبب تسميتها، وفضلها، ومحور مواضيعها، وسبب نزول الآيات التي اخترتها، وبيّنت أهم أقوال علماء التفسير فيها، والمعنى المجمل، والدروس والعبر المستفادة.

وتبيَّن من خلال البحث أنَّ الله قد أخذ الميثاق على هذه الأمة أن تسمع وتطيع خاتم النبيين ﷺ، وذكّرنا بأخذه مثل هذا الميثاق على أقرب الأمم إلينا من حيث التاريخ والجغرافيا؛ وهم اليهود والنصارى، وبيّن ما كان من نقضهم ميثاقه، ومن عقابه لهم على ذلك، حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ولنكون الأمّة الوارثة لميراث النبيين بنقاء العقيدة وصدق النية والتمسك بكتاب الله تعالى.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وأرشده إلى طريق محبَّته، والصلاة والسلام على رسوله خير الأنام، الذي أمرنا الله بطاعته، وبيّن لنا أنَّ اتباع نبيه من محبته ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران:٣١)

وبيّن لعباده أنه يحبُّ منهم الأتقياء الموفين بعهدهم ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (آل عمران:٧٦)

والتقوى أن يجعل العبدُ بينه وبين عذاب الله ستراً، ويكون ذلك بفعل الطاعات، وترك المنهيات.

ويحب الله المحسنين والمنفقين في سبيله ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (البقرة:١٩٥)

والإحسان هو منزلة عالية يصل بها العبد إلى كمال عبادته.

ويحبُّ الله المتوكلين عليه ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران:١٥٩)

والله يحبُّ أهل القسط ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (المائدة:٤٢)

والله يحبُّ من كان ذليلاً على أخيه المؤمن، عزيزاً على أعدائه الكفرة والمنافقين، مجاهداً لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (المائدة:٥٤)

إنّ من أحبَّه الله ينبت في قلبه حب الطاعة وكره المعصية، ويسدد الله له سمعه وبصره ويده ورجله، فينال الخير كله.

أهمية البحث وسبب اختياره

الأمّـة الإسلامية اليوم تمر بمرحلة غلبت فيها مصالح الدنيا وزخرفها على مصالح الآخرة ونعيمها – إلا من رحم الله – ذلك بأن لذائذ الدنيا مشهودة، ولذائذ الآخرة موعودة، وأكثر الناس يؤثـرون الفاني على الباقي ظانّين الموعودَ بعيـدًا، أمَا وإنّ بَعيدًا ما ليس آت، وإنه من أراد الآخرة أضر بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة، وإنَّما الرابح من أضر بالفاني للباقي.

ولا يـذوق المـرء حلاوة الإيمان حتـى يتحلَّى بخصال معلومة؛ فإنْ ذاقهـا كانت له عوناً على مغالبة الهوى.

قـال ﷺ: «ثَـلاَثٌ مَنْ كُنَّ فيـه وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَـانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَـبَّ إِلَيْه مِمَّا سِوَاهُمَـا، وَأَنْ يُحِـبَّ المَـرْءَ لاَ يُحِبُّـهُ إِلَّا للَّه، وَأَنْ يَكْـرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْـرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1]

قـال النووي رحمـه الله: «هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ أَصْـلٌ مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ، قَـالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: مَعْنَـى حَـلَاوَةَ الْإِيمَـانِ اسْتِلْذَاذُ الطاعات وتحمُّـل المشقات في رضى اللَّه عَزَّ وَجَـلَّ وَرَسُولِه ﷺ، وَإِيثَـارُ ذَلِكَ عَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا وَمَحَبَّةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِفِعْلِ طَاعَتِهِ وَتَرْكِ مُخَالَفَتِهِ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[2].

وللإيمان في القلب لذة تشبه الحلاوة الحسية، بل تغلب عليها حتى تدفع بها أشد المرارات[3].

والمحبـة هي المنزلة التي تنافس فيها المتنافسون، وعليهـا تفانى المحبّون، وبروح نسيمها تـروَّح العابدون؛ فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة الأعين، وهي الحياةُ التي مَنْ حُرِمَها صار في عِداد الأموات، والفوزُ الذي مَنْ فَقَدَهُ ماج في بحر الخسارات.

ومن هنا اخترت هذا البحث؛ لأهمية ما تعمل فيه المحبة، وإنَّ أعظم المحبة حب الله للعبد، وأعظـم محبوب هو الله تبارك وتعالى، فبحبه وحبِّ من يحِـبُّ ينال المرء الخير العظيم؛ ذلك أن المرء مع من أحب يوم القيامة، وهي من أيسر الأعمال.

- الدراسات السابقة

لم أقف على بحث علمي كُتب فيما اخترتُ الكتابة فيه، إلا ما كتبه ابنُ قيّم الجوزية في كتابه «مدارج السالكين» في جزئية يسيرة، تحدث فيها عن طعم المحبة وآثارها وشواهدها ومراتبها.

وموضوع بحثي يختلف، وأرجو أن يكون هذا البحث إسهاماً نافعاً. والله الموفِّق لكل خير.

(١) صحيح البخاري (١٦) كتاب الإيمان – باب حلاوة الإيمان.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٢).

(٣) انظر شرح السندي على سنن النسائي (٩٤/٨).

- منهج البحث وأسلوبه

استخدمت في تناولي موضوعات هذا البحث ثلاثة مناهج:

١. الاستقـراء، من خلال أقـوال أشهر علماء التفسير كالطبـري والثعلبي، والقرطبي، وابن كثير وغيرهم.

٢. التحليل، من خلال بذل الوسع فيما تدعو إليه الآية وما ترمي إليه.

٣. الاستنباطات الدعوية التي يحتاجها الدعاة، والدروس والعبر المستفادة.

وأذكـر ما قاله بعض المفسريـن إذا وافق قولهم قولَ المفسر الذي أستعرض تفسيره للآية، أو لاحتواء قول الآخر فائدة ليست في الأول؛ فرتبت أقوال المفسرين على وفق ما تقتضيه الفائدة. وكذلك ترتيب الأحاديث والآثار.

وفي أكثر الأحايين أقطّع بعض الاستطرادات بين الآية والآية؛ لآتي بخلاصة قول المفسر.

وَعَلّقْـتُ الأحاديث والآثـار الواردة في صلب البحث، إلا واحداً؛ فما كان في أحد الصحيحين أحلت إليه في الهامش بالرقم دون ذكر إسناده، وما كان ليس منهما ذكرت إسناده أو مَدَارَ إسناده الذي صح فيه. ولم أحتجّ إلا بالصحيح أو ما يشبه الصحيح. واعتمدت في تخريج الأحاديث والآثار على ذكر المصدر مع رقمها وبيان درجة صحتها، والاقتصار في تخريجها على ما تتم به الفائدة.

- خطة البحث

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، فخاتمة.

ويشمـل التمهيد: أ- التعريف بالسورة. ب- سبب التسمية. ج- فضلها. د- محور مواضيعها. هـ- التعريف اللغوي لكلمة «المحبة».

الفصـل الأول قولـه تعالـى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (المائدة:١٣)

المبحـث الأول: سبب النزول. **المبحث الثاني:** أهم أقـوال علماء التفسير. **المبحث الثالث:** المعنى المجمل للآية. **المبحث الرابع:** الدروس والعبر المستفادة.

الفصـل الثانـي قولـه تعالـى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (المائدة:٤٢).

المبحث الأول: سبب النزول. **المبحث الثاني:** أهم أقوال علماء التفسير. **المبحث الثالث:** المعنى المجمل للآية. **المبحث الرابع:** الدروس والعبر المستفادة.

الفصل الثالث قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (المائدة:٩٣).

المبحث الأول: سبب النزول. **المبحث الثاني:** أهم أقوال علماء التفسير. **المبحث الثالث:** المعنى المجمل للآية. **المبحث الرابع:** الدروس والعبر المستفادة.

ثم الخاتمة، ثم المصادر والمراجع، والفهرس.

التمهيد

أ- التعريف بالسورة: سورة المائدة مدنية، وهي من آخر ما نزل من كتاب الله. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ»(١).

وهي أحد عشر ألفاً وتسعمئة وثلاثة وثلاثون حرفاً (١١٩٣٣). وألفان وثمانمئة وأربع كلمات (٢٨٠٤). ومئة وثلاث وعشرون آية (١٢٣)(٢)(٣).

ب- سبب التسمية: سُمّيَت سورة المائدة لورود خبر مائدة نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، وهو أعجب ما ذُكر في السورة ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة:١١٤).

ج- فضلها: لقد تقدَّم قول أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– إنها آخر السور نزولاً، وبيّن ذلك القرطبي بقوله: «المائدة من آخر ما نزل من القرآن، ليس فيها منسوخ(٤)، وفيها ثمان عشرة فريضة»(٥).

د- محور مواضيعها: تناولت الأحكام الشرعية في مجملها؛ فتناولت أحكام العقود، والذبائح، والصيد، ونكاح الكتابيات، والردة، وأحكام الطهارة، وحد البغي والإفساد في الأرض،

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٥٥٤٧) قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، قال: حدثنا معاوية، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير، قال دخلت على عائشة فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ قال قلت: نعم. قالت: فإنها آخر سورة... وصححه محققو المسند.

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي (تفسير الثعلبي) (١٠٩/١١).

(٣) وهذا في العد البصري، أما في العد الكوفي فآياتها مئة وعشرون، وفي المكي والشامي والمدني مئة وثنتان وعشرون. انظر ((القول الوجيز)) لأبي عيد المخللاتي ص١٨٥. وانظر ((المقصد الأسمى)) أو ((مصاعد النظر)) لإبراهيم البقاعي (١٠٤/٢).

(٤) إن عنى مطلق النسخ ففيه نظر؛ لما رواه سفيان الثوري في «التفسير» صـ٩٩: عن بيان عن الشعبي قال: لم يُنْسَخْ من المائدة غير آية واحدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾ نَسَخَتْهَا ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٧٠/٦).

وكفـارة اليميـن، والوصية عند المـوت، وفيها خبر بني إسرائيل مع نبـي الله موسى عليه السلام، وهي ترمز إلى مآل الطغيان، وقصة ابني آدم، وهي ترمز إلى شر الحسد والكبر.

وناقشـت السـورة اليهود والنصارى فـي عقائدهم، ونقضهـم العهـود والمواثيق، وتحريف الكتب، ثم ذكر الله تعالى خبر رسوله عيسى بن مريم عليه السلام، وما آتاه من الكرامة في الدنيا والآخـرة، وأنـه بريء مما يجرِم المغالون فيـه، المسرفون في دينهم، وذلك فـي يوم الحشر، يوم يأمـره الله تبـارك وتعالى بذكر نعمته عليه وعلى والدته أمام الخلـق أجمع، ثم يسأله – وهو أعلم بـه: أأنـت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟! فيقول: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق!

وفـي هـذا الخبر رد على الجفـاة بإثبات نبوته وكرامتـه، وردع للغلاة بإثبـات عبوديته وقلة حيلتـه؛ فما نفخ في طير ولا أقـام ميتاً، ولا أبرأ سقيماً إلا بإذن الله تعالى، وإن هذا كله أجراه الله هو على يديه، لم يكن له من الأمر شيء.

هـ- التعريف اللغوي لكلمة «المحبة»: يقال أحبَّ فلانٌ فلاناً من الحب، وَوَدَّهُ، وَوَدِدتهُ من الوُدّ، فهو حبيبه وَوَدِيدُهُ وَوُدُّهُ، وَوَدُودُهُ[1].

والحُبُّ: نَقِيضُ البُغْضِ. والحُبُّ: الودادُ والمَحَبَّةُ[2].

وَتقـول: أحبَبْـتُ الشَّـيْء فَأنا مُحِـبٌّ وَهو مُحَبٌّ. قـال أَبُو عُبَيد عَـن أبي زَيد: أَحَبَّـه الله فَهُوَ مَحْبوبٌ[3].

والمحبة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا[4].

والصداقة: المحبة[5].

الفصل الأول قوله تعالى:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

(١) الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهَمَذاني ص١٢٦.

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢٨٩/١).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٨/٤).

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٢٥٦.

(٥) القاموس المحيط لأبي طاهر الفيروز آبادي ص٩٠٠.

المبحث الأول: سبب النزول

قال ابن كثير: «لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكّرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلمَّا نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم، وطرداً عن بابه وجنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ (المائدة:١٢) يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع، والطاعة لله ولرسوله ولكتابه»[1].

المبحث الثاني: أهم أقوال علماء التفسير

قال الطبري: «يقول جل ثناؤه لنبيه ﷺ: يا محمد، لا تعجبَن من هؤلاء اليهود الذين همُّوا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك، ونكثوا العهد الذي بينك وبينهم، غدراً منهم بك وبأصحابك، فإن ذلك من عاداتهم وعادات سلفهم؛ ومن ذلك أني أخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى عليه السلام على طاعتي، وبعثت منهم اثني عشر نقيباً، وقد تخيروا من جميعهم ليتجسسوا أخبار الجبابرة، ووعدتهم النصر عليهم، وأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، بعد ما أريتهم من العبر والآيات بإهلاك فرعون وقومه في البحر وفلق البحر لهم وسائر العبر ما أريتهم، فنقضوا ميثاقهم الذي واثقوني، ونكثوا عهدي، فلعنتهم بنقضهم ميثاقهم؛ فإذا كان ذلك من فعل خيارهم مع أياديّ عندهم، فلا تستنكروا مثله من فعل أراذلهم. وفي الكلام محذوف اكتفي بدلالة الظاهر عليه، وذلك أن معنى الكلام: فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل، فنقضوا الميثاق، فلعنتهم ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ فاكتفى بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ من ذكر «فنقضوا». ويعني بقوله جل ثناؤه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ فبنقضهم ميثاقهم.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض أهل مكة والبصرة والكوفة: ﴿قَٰسِيَةً﴾ بالألف، على تقدير فاعلة، من قسوة القلب، من قول القائل: قسا قلبه، فهو يقسو وهو قاس، وذلك إذا غلظ واشتد وصار يابساً صلباً، فتأويل الكلام على هذه القراءة: فلعنَّا الذين نقضوا عهدي ولم يفوا بميثاقي من بني إسرائيل بنقضهم ميثاقهم الذي واثقوني، وجعلنا قلوبهم قاسية غليظة يابسة عن الإيمان بي والتوفيق

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦٤/٣).

لطاعتي، منزوعة منها الرأفة والرحمة. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، ثم اختلف الذين قرؤوا ذلك كذلك في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: معنى القسوة؛ لأن فعيلة في الذم أبلغ من فاعلة، فاخترنا قراءتها قسية على قاسية لذلك. وقال آخرون منهم: بل معنى «قسية» غير معنى القسوة؛ وإنما القسية في هذا الموضع القلوب التي لم يخلص إيمانها بالله، ولكن يخالط إيمانها كفر، كالدراهم القسية، وهي التي يخالط فضتها غش من نحاس أو رصاص وغير ذلك.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يقول عزَّ ذكره: وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودنا من بني إسرائيل قسية، منزوعاً منها الخير، مرفوعاً منها التوفيق، فلا يؤمنون، ولا يهتدون، فهم لنزع الله عز وجل التوفيق من قلوبهم والإيمان يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى عليه السلام، وهو التوراة، فيبدلونه ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله جل وعز على نبيهم، ويقولون لجهَّال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى عليه السلام والتوراة التي أوحاها إليه. وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود ممَّن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد ﷺ، ولكن الله عز ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدرك موسى منهم، إذ كانوا من أبنائهم وعلى منهاجهم في الكذب على الله والفرية عليه ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة.

﴿وَنَسُواْ حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً، وهو كقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧) أي: تركوا أمر الله فتركهم الله.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ولا تزال يا محمد تطلع من اليهود الذين أنبأتك نبأهم من نقضهم ميثاقي، ونكثهم عهدي، مع أياديّ عندهم، ونعمتي عليهم، على مثل ذلك من الغدر والخيانة، إلا قليلاً منهم. والخائنة في هذا الموضع: الخيانة، وهو اسمٌ وُضع موضع المصدر، كما قيل خاطئة للخطيئة، وقائلة للقيلولة.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ استثناء من الهاء والميم اللتين في قوله: ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمداً ﷺ بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود، يقول الله جل وعز له: اعفُ يا محمد عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه»[1].

(١) جامع البيان (تفسير الطبري) (٨/٢٤٨-٢٥٤).

قال أبو إسحاق الثعلبي: «﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: فبنقضهم، و«ما» فيه ما المصدر، وكل ما ورد عليك من هذا الباب فهو سبيله.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ قرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي: ﴿قَٰسِيَةً﴾ بتشديد الياء من غير ألف، وهي قراءة ابن مسعود والنخعي، وقرأ الأعمش ﴿قسيّة﴾ بتخفيف الياء، على وزن فعلة، وقرأ الباقون ﴿قاسية﴾ على وزن فاعلة، وهما لغتان، مثل: العلية والعالية، والزكية والزاكية.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ قراءة العامة بغير ألف، وقرأ السلمي والنخعي: ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بالألف.

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد، وبيان نَعته.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ اختلفوا في الخائنة؛ فقال المبرد: هي مصدر، كالكاذبة، واللاغية. وقيل: هي اسم، كالعافية والعاقبة. وقيل: هي بمعنى الفاعلة، والهاء فيها للمبالغة، مثل: راوية وعلامة ونسابة. ويجوز أن يكون جمع «الخائن» كقوله بفرقة كافرة، وطائفة خارجة.

﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ﴾ كذب وفجور[1].

وكانت خيانتهم نقضهم العهد، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وهمهم بقتله وسمّه ونحوها من خيانتهم وجنايتهم التي ظهرت.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يخونوا ولم ينقضوا العهد. وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب».[2]

قال ابن كثير: «﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾؛ أي: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعنَّاهم؛ أي: أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أي: فلا يتَّعظون بموعظة لغلظها وقساوتها، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: فسدت فهومهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياذاً بالله من ذلك.

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: وتركوا العمل به رغبة عنه.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك.

---

(١) قاله قتادة. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٦٩٠) عن معمر عن قتادة به.

(٢) الكشف والبيان (١١/٢٣٥-٢٣٧).

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك».[1]

قال الفخر الرازي: «﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ في نقضهم الميثاق وجوه: الأول: بتكذيب الرسل وقتل الأنبياء. الثاني: بكتمانهم صفة محمد ﷺ. الثالث: مجموع هذه الأمور».[2]

قال الثعالبي: «﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ القسوة: غلظ القلب، ونبوُّه عن الرقة والموعظة، وصلابته حتى لا ينفعل لخير.

﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ نص على سوء فعلهم بأنفسهم، أي: قد كان لهم حظ عظيم فيما ذكروا به، فنسوه، وتركوه، ثم أخبر تعالى نبيه ﷺ أنه لا يزال في مستأنف الزمان يطلع على خائنة منهم، وغائلة، وأمور فاسدة».[3]

قال ابن الجوزي: «﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ النسيان هاهنا: الترك عن عمد. والحظ: النصيب».[4]

قال صاحب المنار: «﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ أي: فبسبب نقضهم ميثاقنا الذي أخذناه عليهم، وواثقناهم به، ومنه الإيمان بمن نرسله إليهم من الرسل ونصرهم، وتعزيرهم، استحقوا لعنتنا والبعد من رحمتنا؛ لأنَّ نقض الميثاق قد دنّس نفوسهم، وأفسد فطرتهم، وقسّى قلوبهم، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق، وافترَوا على مريم وبهتوها، وأهانوا ولدها الذي أرسله الله تعالى لهدايتهم، وإصلاح ما فسد من أمرهم، وحاولوا قتله، وافتخروا بذلك بمجرد الشبهة؛ فمعنى لعنهم وجعل قلوبهم قاسية أن نقص الميثاق وما يترتب عليه من المعاصي والكفر كان بحسب سنة الله تعالى في تأثير الأعمال في النفوس، مبعداً لهم عن كل ما يستحقون به رحمة الله وفضله، ومقسّياً لقلوبهم حتى لم تعد تؤثر فيها حجة ولا موعظة؛ فهذا معنى إسناد اللعنة وتقسية القلوب إليه تعالى، وليس معناه ما يزعمه الجبرية من أنه شيء خلقه الله ابتداء، وعاقبهم به، ولم يكن مسبباً عن أعمالهم الاختيارية التي هي علة لذلك.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ التحريف: إمالة الشيء عن موضعه إلى أي جانب من جوانب ذلك الموضع، مأخوذ من الحرف، وهو الطرف والجانب. و«الكلِم» جمع «كلمة»، وتطلق على اللفظ المفرد، وهو ما اقتصر عليه النحاة، وعلى الجملة المركبة ذات المعنى التام المفيد؛

(١) تفسير ابن كثير (٣/٦٦-٦٧).
(٢) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) (١١/ ٣٢٤).
(٣) الجواهر الحسان (تفسير الثعالبي) (٢/٣٦٣).
(٤) زاد المسير في علم التفسير (١/٤٢٨).

كقولك: كلمة التوحيد. وتحريف الكلم عن مواضعه يصدق بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة والنقصان، وبتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له، وقد اختار كثير من علمائنا الأعلام هذا المعنى في تفسير الآية، وعللوه بأن التصرف في ألفاظ كتاب متواتر متعسر أو متعذر، وسبب هذا الاختيار والتعليل عدم وقوف أولئك العلماء على تاريخ أهل الكتاب، وعدم اطلاعهم على كتبهم، وقياس تواترها على القرآن. والتحقيق الذي عليه العلماء الذين عرفوا تاريخ القوم واطَّلعوا على كتبهم التي يسمونها التوراة وغيرها (وكذا كتب النصارى) هو أن التحريف اللفظي والمعنوي كلاهما واقع في تلك الكتب، ما له من دافع، وأنها كتب غير متواترة، فالتوراة التي كتبها موسى عليه السلام، وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها – كما هو مسطور في الفصل الحادي والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع – قد فقدت قطعاً، باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى، ولم يكن عندهم نسخة سواها، ولم يكن أحد يحفظها عن ظهر قلب، كما حفظ المسلمون القرآن كله في عهد النبي ﷺ. وهذه الأسفار الخمسة التي ينسبونها إلى موسى فيها خبر كتابته التوراة، وأخذه العهد عليهم بحفظها، وهذا ليس منها قطعاً، وفيها خبر موته وكونه لم يقم بعده أحد مثله إلى ذلك الوقت؛ أي: الذي كتب فيه ما ذكر من سفر التثنية، وهذا نص قاطع في كون الكاتب كان بعد موسى بزمن يظهر أنه طويل، وكون ما ذكر ليس من التوراة في شيء، ومن المشهور عندهم أنها فقدت عند سبي البابليين لهم. وفي هذه الأسفار ما لا يحصى من الكلم البابلي الدال على أنها كتبت بعد السبي. فأين التواتر الذي يشترط فيه نقل الجم الغفير الذين يؤمن تواطؤهم على التبديل والتغيير في كل طبقة من الطبقات، بحيث لا ينقطع الإسناد في طبقة ما؟ والمرجع عند محققي المؤرخين من الإفرنج أن هذه التوراة الموجودة كُتبت بعد موسى ببضعة قرون، والمشهور أن أول من كتب الأسفار المقدسة بعد السبي: عزرا الكاهن، في زمن الملك أرتحششتا الذي أذن له بذلك؛ إذ أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى بلادهم.

﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ روى ابن المبارك وأحمد في الزهد عن ابن مسعود أنه قال في تفسير الآية[1]: «إِنِّي لَأَحْسِبُ الرَّجُلَ يُنَسَّى العِلْمَ كَانَ يَعْلَمُهُ بِالخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا»[2] يعلل بذلك ما أفادته الآية من نسيانهم لبعض ما ذكرهم الله به من كتابه.

وفسَّر النسيان بعض العلماء بترك العمل، كأن هؤلاء استبعدوا نسيان شيء من أصل كتاب

(١) ليس الأمر كما قال الأستاذ؛ فلم يوردها أحد من هؤلاء في تفسير الآية.

(٢) أخرجه وكيع بن الجراح في ((الزهد)) (٢٦٩)، ومن طريقه أخرجه الإمام أحمد في ((الزهد)) (٨٥٣)، قال: حدثنا المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود. والمسعودي، عن الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله قالا: قال عبد الله: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه للخطيئة يعملها» وإسناده جيد؛ فأما الأول فمُرسَل، وأما الثاني فهو محتمل الوصل؛ لاحتمال سماع عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود من أبيه.
والحسن بن سعد هو ابن معبد الكوفي، مولى الحسن بن علي رضي الله عنه، وثقه النسائي، وهو قليل الحديث.
والمسعودي هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود. ثقة مكثر، وكان قد تغيّر بأخرة.

القـوم، وإضاعتـه لتوهمهم أنـه كان متواتراً، والحق أنهـم أضاعوا كتابهم وفقـدوه عندما أحرق البابليون هيكلهم، وخربوا عاصمتهم، وسبوا من أبقى عليه السيف منهم، فلما عادت إليهم الحرية في الجملة جمعوا ما كانوا حفظوه من التوراة، ووعوه بالعمل به، أو ذكروه في بعض مكتوباتهم لنحو الاستشهاد به، ونسوا الباقي.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ الخائنـة هنـا: الخيانة، كما روي عن قتادة. والعرب تعبِّر بصيغة الفاعل عن المصدر أحياناً، كما تعكس فاستعملت «القائلة» بمعنى «القيلولة» و«الخاطئة» بمعنى «الخطيئة»، أو هي وصف لمحذوف، إمَّا مذكر والهاء للمبالغة كما قالوا: «راوية» لكثيـر الرواية، و«داعية» لمن تجرد للدعوة إلى الشيء. وإمـا مؤنث بتقدير نفس، أو فعلة، أو فرقة خائنـة. والمعنى: أنك، أيها الرسول، لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود المجاورين لك على خيانة بعد خيانـة ما داموا مجاورين أو معاملين لـك في الحجاز، فلا تحسبن أنك قد أمنت مكرهم وكيدهم بتأمينـك إياهم علـى أنفسهم، فإنهم قوم لا وفاء لهم ولا أمان، وقـد نقضوا عهد الله وميثاقه من قبـل، فكيـف يرجى منهم الوفـاء لك بعد ذلك النقض ومـا ترتب عليه من قسـاوة قلوبهم وقتلهم لأنبيائهم؟!

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ كعبـد الله بن سلام وإخوانه الذين أسلموا؛ فهؤلاء صادقون في إسلامهم، لا يقصدون خيانة ولا خداعاً.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فاعـفُ عمـا سلـف من هـؤلاء القليل، واصفـح عن مسيئهم، وعاملهم بالإحسـان الذي يحبه الله تعالى، وأنت أيهـا الرسول أحق الناس بتحـري مـا يحبه الله - وهذا رأي أبـي مسلم[1] - أو: فاعف عما سلف مـن جميعهم واضرب عنه صفحـاً إيثـاراً للإحسان والفضل على ما يقتضيه العدل. قيل: كان هـذا أمراً مطلقاً، ثم نسخ بآية التوبة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (التوبة:٢٩)، وروي هذا عن قتادة، ويـرده قتال النبي ﷺ لليهود قبل نزول التوبة، وكـون آية التوبة نزلت بقبول الجزية، وهو يتفق مع العفـو والصفح، فإنهم بخيانتهم صـاروا حربيين، واستحقوا أن يقتلوا، وقبـول الجزية منهم يعد عفواً وصفحاً عن قتلهم، وإحساناً لهم.

وثَـمَّ وجه آخر، وهو أن الأمـر بالعفو والصفح إنما هو عن الخيانات الشخصية، لا عن نقض العهـد الـذي يصيرون بـه محاربين لا يؤمَـن جوارهم، وهذا أظهـر من جعل الأمـر بالعفو مقيداً بشـرط محـذوف تقديره: إن تابوا وآمنوا وعاهـدوا، أو التزموا الجزية. هـذا ملخَّص ما يقال في رأي الجمهور».[2]

(١) يعني محمد بن بحر الأصفهاني.
(٢) تفسير المنار (٦/٢٣٣-٢٣٦).

قال ابن عاشور: «﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾، واللعن هو الإبعاد، والمراد هنا الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن هديه، إذ استوجبوا غضب الله لأجل نقض الميثاق.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ قساوة القلب مجاز[1]، إذ أصلها الصلابة والشدة، فاستعيرت لعدم تأثر القلوب بالمواعظ والنذر.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئناف أو حال من ضمير «لعنّاهم».

والتحريف: الميل بالشيء إلى الحرف، والحرف هو الجانب. وقد كثر في كلام العرب استعارة معاني السير وما يتعلق به إلى معاني العمل والهدى وضده فمن ذلك قولهم:

السلوك، والسيرة والسعي ومن ذلك قولهم: الصراط المستقيم، وصراطاً سوياً، وسواء السبيل، وجادة الطريق، والطريقة الواضحة، وسواء الطريق، وفي عكس ذلك قالوا:

المراوغة، والانحراف، وقالوا: بنيّات الطريق، ويعبد الله على حرف، ويشعب الأمور.

وكذلك ما هنا، أي يعدلون بالكلم النبوية عن مواضعها فيسيرون بها في غير مسالكها، وهو تبديل معاني كتبهم السماوية. وهذا التحريف يكون غالباً بسوء التأويل اتباعاً للهوى، ويكون بكتمان أحكام كثيرة مجاراة لأهواء العامة. قيل: ويكون بتبديل ألفاظ كتبهم.

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ معطوفة على جملة يحرفون. والنسيان مراد به الإهمال المفضي إلى النسيان غالباً. وعبَّر عنه بالفعل الماضي لأن النسيان لا يتجدد، فإذا حصل مضى، حتى يذكره مذكر. وهو وإن كان مراداً به الإهمال فإن في صوغه بصيغة الماضي ترشيحاً للاستعارة أو الكناية لتهاونهم بالذكرى.

---

(١) أنكر المجاز في القرآن شيخ الإسلام ابن تيمية – انظر ((مجموع الفتاوى)) المجلد السابع – وتابعَه ابن القيم، كما في ((مختصر الصواعق)) وتابعهم من المعاصرين الشيخ الشنقيطي صاحب ((أضواء البيان)) وصنّف رسالة: ((منع جواز المجاز في المنزّل للتعبد والإعجاز)) وتابعهم الشيخ عبدالعزيز بن باز، وكان يقول: «الصحيح الذي عليه المحققون أنه ليس في القرآن مجاز على الحد الذي يعرّفه أصحاب فن البلاغة، وكل ما فيه فهو حقيقة في محله، ومعنى قول بعض المفسرين إن هذا الحرف زائد؛ يعني من جهة قواعد الإعراب، وليس زائداً من جهة المعنى، بل له معناه المعروف عند المتخاطبين باللغة العربية؛ لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم» (مجلة الدعوة – العدد ١٠١٦ – ٦ ربيع الأول ١٤٠٦هـ). وتابعهم من المعاصرين أيضاً: حماد الأنصاري، حيث كان يقول: «علم البلاغة علم جيد تعرف به أسرار اللغة، ولكن أدخلت فيه ثلاث طواغيت، وهي: ـ المجاز على المعنى الذي يعنونه ـ التورية على المعنى الذي يعنونه ـ التأويل على المعنى الذي يعنونه. وهذه الثلاثة الطواغيت دسها المعتزلة في كتب البلاغة، والمعتزلة هم من أول من ألف في علم البلاغة، وأدخلوا هذه الثلاثة من أجل أن يبرروا موقفهم في نفي صفات الله تعالى، والتأويل لم يذكر في كتب اللغة القديمة بهذا التعريف الذي هم عليه، إنما جاء التأويل بمعنى التفسير، وجاء بمعنى حقيقة الشيء والتأويل عندهم هو تحريف الكلمات عن معانيها الصحيحة إلى معانٍ باطلة. وأما المجاز فقد أبطله ابن القيم بخمسين دليلاً لخصتها في خمسة أدلة «إن الحافظ بن حجر لا يُقِرُّ كلمة مجاز وقد جمعت من الفتح مواضع تكلم فيها على المجاز بلغت أوراقاً موجودة عندي» «إن السلف لم يذكر أحد منهم المجاز على الطريقة أو المعنى الذي استخدمه المعتزلة وغيرهم» (المجموع في ترجمة حماد الأنصاري – ٣٣٠، ٣٤٤، ٤٥٥). قلت: هذا ما ذهب إليه هؤلاء، وإنما ذكرنا الذين يشار إليهم من أصحاب هذا القول، وأول من أشار إلى المجاز: هو أبو عبيدة معمر بن المثنى، وتابعه عبد القاهر الجرجاني، وغيرهم ممن صنّف في البلاغة، وفي المسألة بسط لا يتسع المقام له.

والحظ النصيب، وتنكيره هنا للتعظيم أو التكثير بقرينة الذم. وما ذكّروا به هو التوراة.

وقد جمعت الآية من الدلائل على قلة اكتراثهم بالدين ورقة اتباعهم ثلاثة أصول من ذلك، وهي: التعمد إلى نقض ما عاهدوا عليه من الامتثال، والغرور بسوء التأويل، والنسيان الناشئ عن قلة تعهد الدين وقلة الاهتمام به.

والمقصود من هذا أن نعتبر بحالهم ونتعظ من الوقوع في مثلها. وقد حاط علماء الإسلام- رضي الله عنهم- هذا الدين من كل مسارب التحريف».[1]

المبحث الثالث: المعنى المجمل للآية

بعد أن أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان برسل الله واتباعهم ونصرتهم، وعدهم الله بتكفير سيئاتهم وإكرامهم بدخول جناته.

لكن النتيجة كانت مخيبة؛ فقد نقض أولئك العهود والمواثيق مع الله؛ فقتلوا الأنبياء بغير حق، وحرّفوا التوراة، ونسوا الشرائع، ولم يألوا في سعيهم لقتل رسول الله ﷺ وإيذائه، ولكن الله عصمه منهم مراراً، وأظهر مكرهم، وما كانوا لينالوا ما يحبون حتى يكمل الله دينه، ويتم نعمته. إلا القليل منهم كانوا للحق متبعين.

وقد أمر الله نبيّه ﷺ بالإحسان إلى من يجدي معه الإحسان، وأن يصفح؛ فهذا أصل المعاملة، لعلهم يرجعون، ومن أبى فلا يلومن إلا نفسه.

المبحث الرابع: الدروس والعبر المستفادة

أ-إن الذين يبدّلون كلام الله لا أمان لهم على شيء، وقد حذّر الله ممن يفعل ذلك، ولكيلا يصيبنا ما أصابهم، فما من شيء يذكره الله من أحوال الأمم، إلا وهو يحذّر هذه الأمة من الوقوع فيه، خلافاً لمن ظنها حكايات، وَسَطَّحها حتى أذهب عنها غايتها العظيمة. وفي حديث رسول الله ﷺ المشهور: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»[2].

وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: «نِعْمَ الْأُخْوَةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ كَانَ لَكُمُ الْحُلْوُ وَلَهُمُ الْمُرُّ، كَلَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تُحْذَى السُّنَّةُ بِالسُّنَّةِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ»[3].

(١) التحرير والتنوير (١٤٣/٦-١٤٤).

(٢) صحيح البخاري (٣٤٥٦) كتاب أحاديث الأنبياء - باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في ((السنة)) (٦٥) قال: حدثنا إسحاق، أنبا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، قال: كنا عند حذيفة فذكروا س (المائدة: ٤٤) فقال رجل من القوم: إنما هذا في بني إسرائيل، فقال حذيفة: «نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل أن كان لكم الحلو ولهم المر، كلا والذي نفسي بيده حتى تحذى السنة بالسنة حذو القذة بالقذة». وهو صحيح.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «أنتم أشبه الناس ببني إسرائيل، والله لا تدعون شيئاً عملوه إلا عملتموه، ولا كان فيهم شيء إلا سيكون فيكم مثله».[1]

ب- إن الله تعالى عصم نبيّه ﷺ عما يحول بينه وبين إتمام الدين، ولم يألُ أعداؤه جهداً في محاربته، ومحاولة قتله؛ ليصدُّوا الناس عن الدين، ولكنّ الله أحبط أعمالهم، وردَّ كيدهم في نحورهم.

ذلك، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن رسول الله ﷺ قد مات من أثر الأكلة التي أكلها بخيبر من الشاة المسمومة، أو أنها سبب في موته ﷺ؛ فقد جاءت الأخبار بذلك من وجوه، يطول المقام ببسطها. وأجابوا على الذين ردوها مستدلين بقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ (المائدة:٦٧): بأن الله تعالى عصم رسولَه ﷺ حتى بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، وأن الله تعالى خيّره بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده؛ فلا يكون في وفاة رسول الله ﷺ من أثر السم نقيصة، بل هو كرامة حيث اجتمعت له الشهادة والنبوة. وقد قال قوم: إن النبوة أعلى رتبة من الشهادة فلا وجه فيها! والجواب: لو صحَّ ما ذهبوا إليه لمَا تمنّى رسول الله ﷺ الشهادة وسعى إليها؛ فهو القائل: «وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»[2].

وهذا الذي قلنا هو مذهب كبار الصحابة، قال الإمام أحمد في «المسند»: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال:

«لأَنْ أَحْلِفَ تِسْعًا أنّ رسول الله ﷺ قُتِلَ قَتْلًا، أحب إليّ من أن أحلف واحدة أنه لم يقتل، وذلك أن الله عز وجل جعله نبياً، واتخذه شهيداً»، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم، فقال: «كانوا يرون، ويقولون: إن اليهود سَمُّوه، وأبا بكر رضي الله عنه»[3].

فإنْ كان ذلك كذلك؛ ففيه بيّنة على غدرهم، وخبث معتقدهم، حيث يتعبدون بقتل أولياء

(١) المصدر السابق (٦٣، ٦٤) قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبا جرير، عن الأعمش، عن يحيى بن عبيد أبي عمر، قال: سمعت رجلاً، من أشجع من أصحاب عبد الله بن مسعود قال: قال عبد الله...فذكره. وحدثنا بندار، ثنا عبد الرحمن، ثنا سفيان، عن أبي قيس، عن الهزيل، قال عبد الله... وهو صحيح.

(٢) صحيح البخاري (٣٦) كتاب الإيمان – باب الجهاد من الإيمان. وصحيح مسلم كتاب الإمارة – باب فضل الجهاد (١٨٧٦).

(٣) مسند الإمام أحمد (٣٦١٧، ٣٨٧٣، ٤١٣٩) من طريق عبد الرحمن بن مهدي، وعبد الرزاق عن سفيان عن الأعمش به. ومن طريق أبي معاوية عن الأعمش به. وإسناده صحيح. وقد صححه محققو المسند. ويعضده تصديق إبراهيم النخعي للأعمش حين ذكر له الخبر، حيث قال: «كانوا يرون أن اليهود سموه وأبا بكر» وقوله «كانوا» يشير إلى أن هذا مذهب عدد من الصحابة.

الله مـن النبيين والصديقين وإيذائهم. وإنهم لمّا أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنـه من جزيرة العرب إنما أجلاهم حين غدروا غـدرة في عهده، فنالهم منه سوط العقوبة، وأنفـذ فيهـم وصية رسـول الله ﷺ[1]. فالدهر قد أحصى من غدراتهـم، وما زال يحصي ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

ج- إن مـن مقتضيـات الإيمـان أن ينهض المؤمن لينصر مـا آمن به، ويقيمـه في الأرض، فديـن الله ليـس محض اعتقـاد، ولا محض شعيرة تقام، بل هو قول وعمـل واعتقاد، يزيد الإيمان بالطاعـة، وينقص بالمعصية، وهذا مذهب أهل الحق، لا يحيـد عنه إلا زائغ، خلافاً لأهل الكتاب الذين يفرقون بين العمل والاعتقاد، وخلافاً للفرق المنتسبة للإسلام من المرجئة الذين يضمنون الجنة، لا يأبهون كيف عمل المرء، والخوارج الذين يضمنون للمرء النار ضماناً أبدياً إن هو قارف كبيرة من الكبائر.

قـال عبـد الرزاق: «كان معمر وابن جريـج والثوري ومالك وابن عيينـة يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وأنا أقول ذلك: الإيمان قول وعمل، والإيمان يزيد وينقص فإن خالفتهم فقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين».[2]

وقال حربٌ الكرماني: «هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسِّكين بها، المقتـدى بهـم فيها، من لدن أَصْحَـابِ النَّبِيِّ ﷺ، إلى يومنا هذا. وأدركـت من أدركت من علماء أهـل الحجـاز والشام وغيرها عليها، فمن خالـف شيئاً من هذه المذاهـب، أو طعن فيها، أو عاب قائلهـا، فهـو مخالف مبتـدع، خارج عن الجماعة، زائـل عن منهج السنة وسبيـل الحق. قال: وهو مذهـب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم، وعبد الله بن مخلـد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بـن منصور، وغيرهم ممـن جالسنا وأخذنا عنهم العلم، وكان من قولهـم: أن الإيمان قول وعمل، ونيَّة، وتَمَسُّكٌ بالسنة، يزيد وينقص».[3]

د- إن هـذا القرآن معلّم هذه الأمّة، ومرشدها، ونورها، يهدي إلى سبل السلام، ويخرج من الظلمات إلى النور، وفيه تفصيل كل شيء؛ فلو ظلت الأمّة تأخذ بما فيه، وعضّت عليه بالنواجذ ما كان ليستطيع أعداؤها أن ينالوا منها يوماً، فلمّا نسوا شرعة ربهم والتمسوا العز بغيره أصابهم ما

(١) في صحيح البخاري (٢٧٣٠) كتاب الشروط - باب إذا اشترط في المزارعة: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ مَرَّارُ بْنُ حَمُّوَيْهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى أَبُو غَسَّانَ الكِنَانِيُّ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا فَدَعَ أَهْلُ خَيْبَرَ عَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ، قَامَ عُمَرُ خَطِيبًا، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ عَامَلَ يَهُودَ خَيْبَرَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَقَالَ: «نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمُ اللَّه» وَإِنَّ عَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ خَرَجَ إِلَى مَالِهِ هُنَاكَ، فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَفُدِعَتْ يَدَاهُ وَرِجْلاَهُ، وَلَيْسَ لَنَا هُنَاكَ عَدُوٌّ غَيْرُهُمْ، هُمْ عَدُوُّنَا وَتُهَمَتُنَا وَقَدْ رَأَيْتُ إِجْلاَءَهُمْ...

(٢) «السنة» لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٧٢٦).

(٣) سنن سعيد بن منصور – المقدمة، ص١١٦.

أصـاب الأمم قبلهم، من نبذ كتـاب الله وراء ظهورهم وهجرانه، كأنهم لا يعلمون بتضييع حقوقه، والعبـث في أحكامه، وعـدم الاعتبار بحال الأمـم المهلَكة. قال أمير المؤمنيـن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلاَمِ، فَلَنْ نَلْتَمِسُ الْعِزَّ بِغَيْرِهِ».[1]

فـإذا حادوا عـن منهج الله وتركوا كتابه، واستبدلوه بأهواء الخلـق من أهل الغرب والشرق، ملتمسيـن العز فـي غير دين الله، أذلَّهم الله وسلّط عليهم عدوّه، فما بين الله وبين عباده أنساب، فمـا استقام العباد نالوا خيـر الدنيا، ونعيم الآخرة، وإذا زاغـوا أزاغ الله قلوبهم فيخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ (النسـاء:١٢٣). فشـرط على من أراد نصـر الله، أن ينصر الله، ويتمسـك بالإيمـان الصادق، والعمـل الصالح، والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر، وأن تسرّه حسنته، وتسوءه سيئته.

الفصل الثاني قوله تعالى:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

المبحث الأول: سبب النزول

قـال الثعلبي: «نزلـت هذه الآية في حكام اليهـود، كعب بن الأشرف وأمثالـه، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم».[2]

قـال ابن كثير: «قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلـوا قتيلا وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمـر برجم من أحصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهـم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب علـى حمـار مقلوبين. فلما وقعت تلـك الكائنة بعد هجرة النبـي ﷺ، قالوا فيما بينهم:

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦١١٤) قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: لما قدم عمر الشام أتته الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة، وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقالوا له: يا أمير المؤمنين تلقاك الجنود وبطارقة الشام، وأنت على هذا الحال؟! قال: فقال عمر: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام؛ فلن نلتمس العز بغيره». وإسناده صحيح.

(٢) الكشف والبيان (٣٤١/١١).

تعالـوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخـذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقـد وردت الأحاديث بذلك، فقـال مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إن اليهود جـاؤوا إلـى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهـم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجـدون في التوراة في شـأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيهـا الرجـم. فأتوا بالتوراة فنشروهـا، فوضع أحدهم يده على آية الرجـم، فقرأ ما قبلها وما بعدهـا، فقـال له عبد الله بن سـلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آيـة الرجم، فقالوا: صدق يا محمـد، فيها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة».[1] [2]

المبحث الثاني: أهم أقوال علماء التفسير

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «السحت الرشوة»[3].

وعن مسروق بن الأجدع رحمه الله قال: «القاضي إذا أخذ هدية، فقد أكل السحت، وإذا أخذ الرشوة بلغت به الكفر»[4].

قـال القرطبي: «﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي: قابلون لكـذب رؤسائهم من تحريف التوراة. وقيل: أي يسمعون كلامك يا محمد ليكذبوا عليك، فكان فيهم من يحضر النبي ﷺ ثم يكذب عليه عند عامتهم، ويقبح صورته في أعينهم»[5].

قال الطبـري: «﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ هؤلاء اليهود الذين وصفت لك

(١) تفسير ابن كثير (١١٣/٣).

(٢) الحديث في موطأ مالك - طبعة سليم الهلالي (١٦٣٧) كتاب الحدود، باب ما جاء في الرجم. وفي صحيح البخاري (٣٦٣٥) كتاب المناقب - باب قوله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾. وصحيح مسلم (١٦٩٩) كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٢٣٥١١) من طريق سفيان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود به. وهذا إسناد جيد، والخبر صحيح؛ فقد أخرجه أيضاً الخلال في «السنة» (١٤١٢) عن الإمام أحمد، قال: ثنا هشيم، قال: ثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن علقمة، والأسود، أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: «هي السحت» قالا: أفي الحكم ذلك؟ قال: «ذلك الكفر» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وأخرجه سعيد بن منصور في «السنن» (٧٤١): نا سفيان، عن عمار الدهني، عن سالم بن أبي الجعد، عن مسروق، قال: سألت ابن مسعود عن السحت، أهو الرشوة في الحكم؟ قال: «لا، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والظالمون، والفاسقون. ولكن السحت: أن يستعينك رجل على مظلمة، فيهدي لك، فتقبله، فذلك السحت». وقد أورد الطبري سائر هذه الطرق (٤٢٩/٨).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢٣٣٥٣) قال: حدثنا خلف بن خليفة، عن منصور، عن الحكم، عن أبي وائل، عن مسروق به. ورجاله ثقات.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (١٨١/٦).

يـا محمـد صفتهم، سمّاعـون لقيل الباطل والكذب، ومـن قِيلِ بعضهم لبعضـ: محمد كاذب ليس بنبي. وقِيلِ بعضهم: إن حكم الزاني المحصن في التوراة الجلد والتحميم. وغير ذلك من الأباطيل والإفك، ويقبلون الرشى، فيأكلونها على كذبهم على الله وفريتهم عليه.

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ إن جـاء هؤلاء القوم الآخرون الذين لم يأتوك بعـد، وهم قوم المرأة البغية، محتكمين إليك، فاحكم بينهم إن شئت بالحق الذي جعله الله حكماً لـه فيمن فعل فِعل المرأة البغية منهـم، أو أعرِضْ عنهم فدع الحكم بينهم إن شئت، والخيار إليك في ذلك.

﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ فإنّ معناه: وإنْ تعرض يا محمد عن المحتكمين إليك من أهل الكتاب فتدع النظر بينهم فيما احتكموا فيه إليك، فلا تحكم فيه بينهم، فلن يضروك شيئـاً، يقـول: فلن يقدروا لك على ضر في دين ولا دنيا، فـدع النظر بينهم إذا اخترت ترك النظر بينهم.

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ فـإنّ معناه: وإن اخترت الحكم والنظر يا محمد بين أهل العهد إذا أتوك، فاحكم بينهم بالقسط، وهو العدل، وذلك هو الحكم بما جعله الله حكماً في مثله على جميع خلقه من أمة نبينا ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فمعنـاه: إن الله يحب العادلين في حكمه بين الناس، القاضين بينهم بحكم الله الذي أنزله في كتابه وأَمَرِه أنبياءه صلوات الله عليهم.

يقـال منه: أقسط الحاكم فـي حكمه إذا عدل وقضى بالحق يقسط إقساطاً به. وأما «قَسَطَ» فمعناه: الجور، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ (الجن: ١٥) يعني بذلك: الجائرين على الحق».[1]

قـال الثعلبي: «﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ فيه لغات: «السُّحُت» بضم السين والحاء، وهي قراءة أهل الحجاز والبصرة، واختيار الكسائي.

و«السُّحْت» مخفف، وهي قراءة أهل الشام، وعاصم، وحمزة، وخلَف.

و«السَّحْت» بفتح السين وجزم الحاء، رواه العباس عن نافع.

و«السِّحْت» بكسر السين وجزم الحاء، وهي قراءة عبيد بن عمر، وهو الحرام.

وأصله الهلاك والشدة. قال الله تعالى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾ (طه:٦١).

(١) تفسير الطبري (٨/٤٢٨-٤٤٧).

ويقال للحالق إذا استأصل الشعر: سحت.

وقال الفراء: أصله كَلَبُ الجوع، يقال: رجل مسحوت المعدة، إذا كان أكولاً، لا يُلقى أبداً إلا جائعاً، وكأن المسترشي وآكل الحرام به من الشَرَه إلى ما يعطى مثل الذي بالمسحوت من النهم.

وقال الأخفش: السحت كل كسب لا يحل.

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يا محمد. ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ خيّر الله تعالى رسولَه في الحكم بينهم، إن شاء حكم وإن شاء ترك. ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالعدل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ العادلين»[1].

قال ابن كثير: «﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي: الباطل.

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ أي: الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد.

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ أي: يتحاكمون إليك.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما وافق هواهم.

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل»[2].

قال الشوكاني: «﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ كرره تأكيداً لقبحه، وليكون كالمقدمة لما بعده، وهو: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾، وهما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المقدر سابقاً. والسحت بضم السين وسكون الحاء: المال الحرام، وأصله الهلاك والشدة، من سحته: إذا هلكه، ومنه ﴿فيسحتكم بعذاب﴾.

وسمي الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات؛ أي: يذهبها ويستأصلها. وقال الفراء: أصله كَلَبُ الجوع.

وقيل: هو الرشوة. والأول أولى[3]، والرشوة تدخل في الحرام دخولاً أولياً. وقد فسره جماعة

(١) الكشف والبيان (١١/٣٤٠-٣٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١١٧).

(٣) في قوله هذا نظر؛ لأن الذين قالوا بأنها الرشوة لم ينفوا مسمى السحت عن الأمور الأخرى، ولكنهم فسروا خصوص السبب

بنـوع مـن أنواع الحـرام خاص كالهديـة لمن يقضي لـه حاجة، وحلـوان الكاهـن، والتعميم أولى بالصواب.

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ فيـه تخيير لرسول الله ﷺ بين الحكم بينهم والإعراض عنهم.

وقد استدل به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين.

﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلا سبيـل لهم عليك؛ لأن الله حافظـك وناصرك عليهم، وإن اختـرت الحكم بينهم ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي أمرك الله به وأنزله عليك».[1]

قـال صاحـب المنار: «﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ ومن فسّره بالرشـوة المطلقة أو المقيدة فقد أراد به أنه المراد من الآية باعتبار نزولها في أحبار اليهود ورؤسائهم، لا المعنى اللغوي العام»[2].

وقـال: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، والمقسطـون هـم المقيمـون للقسط بالحكـم به أو الشهادة أو غير ذلك»[3].

المبحث الثالث: المعنى المجمل للآية

أخبر تعالى عن حال بني إسرائيل، وما انتهوا إليه من فساد في الخُلُق والسلوك قبل أن يبيّن لرسولـه ﷺ كيـف يتعامل معهـم إذا جاؤوا إليه متحاكميـن. ثم وصفهم بأنهم يكثـرون الإصغاء إلـى الكذب وأهله، ويكثرون أكل الرشـى؛ فجمعوا بين خصلتين خبيثتين، كل واحدة منهما تسقط العدالة.

فإن جاؤوا ليحكم بينهم، فالقاضي مخيّر بين القضاء بينهم وبين الإعراض عنهم بحسب ما يقدّر المصلحة؛ لأنهم في الغالب لا يأتون ابتغاء الحق، وإنما ينقبون عما يوافق أهواءهم.

ثم أخبر الله نبيّه أنه لا يضره إعراضه عنهم إن كره الحكم بينهم، فالله وليّه، وهم أهون من أن يضروه بشيء، فلم يكونوا في موطن قوة، ولو كانوا في موطن قوة فهم يغلب عليهم أنهم جبناء، والجبن خصلة متفشية في أهل الباطل.

وإن حكمـت بينهم فاحكم بالقسط، وهو العدل المحض، رغم ظلمهم وخروجهم عن سبيل

الذي في الآية؛ فالسحت المعني بالآية هو الرشوة خاصة.

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/٤٨-٤٩).

(٢) تفسير المنار (٦/٣٢٤).

(٣) المصدر السابق (٦/٣٢٦).

العـدل؛ فإن الله يحب المقسطين، فالقسط خصلة يمتاز بهـا أهل الحق ورثة النبيين، ويندر جداً أن تجد كافراً يتحلى بهذه الصفة، وكذلك فسقة المسلمين وجُهّالهم.

المبحث الرابع: الدروس والعبر المستفادة

أ- يوضـح لنا تعالى صورة عن بني إسرائيل حين طـال عليهم الأمد، وخمدت شعلة العقيدة عندهم، وأهلكهم الفتور حتى مرقوا من دينهم.

ب- يحذِّرنـا الله من سلوك مسلكهم المنحرف، الذي يبدأ غلـواً ثم ينتهي ابتداعاً أو مروقاً من الدين؛ فأعقبهم ذلك لعنة، وعذاباً، ومسخاً.

ج- إنَّ الإسهـاب والتفصيـل في واقع بنـي إسرائيل وما آلوا إليه هو عبـرة للمعتبِر، وتحذير للحَذِر.

د- إنّ شرعـة الله تمثـل منهاجاً متكامـلاً للثقلين، يتناول بالتنظيـم والتوجيه سائر جوانب الحيـاة، وهـو قائم على العلم المطلـق بحقيقة الخَلق، ومن هنـا كان التوازن، وهو الأمر الذي لا يتأتى من المخلوق الذي لا يعلم إلا ظاهراً من الأمور.

أما تشريع البشر من غير الرسل، فهو متلاطم بين أهواء الناس، على رِجل طائر، ما له من قرار.

هـ- إذا واقـع المرءُ الباطلَ لا ينشب أن يصير سجية من سجاياه إذا لم تسؤه سيئته. وبعض الناس لا تسوءه سيئته إلا إذا رأى البلاء، أما إذا طال به الرخاء فيظن أنَّ الله قد غفرها له، وهذا معتقد بيِّن الفساد.

و- لقـد أكل الآكلـون من أحبار اليهود السحتَ، وعند بعضهم علَّـة يتعللون بها، وهي الفاقة؛ فتجـد من اتخذ إلهه هواه يأكل الربا، ويأخـذ الرشى، ويفعل الأفاعيل بحجة الاضطرار، وهـذه خدعة إبليـس اتخذها الناس سُلّمـاً. فعلى المرء أن يطلب الـرزق ويستعين بالله، ويتصبر، فمن تَصَبَّر يُصَبِّرْهُ الله، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله.

قال رسول الله ﷺ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1].

ز- إن الداعية إذا لم يألُ جهداً في دعوة الناس إلى الخير، ولم يجد منهم الاستجابة، ووجد

(١) صحيح البخاري (١٤٦٩) كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة. وصحيح مسلم (١٠٥٣) كتاب الزكاة - باب فضل التعفف والصبر.

إدباراً ونفوراً، فليس عليه جناح في تركهم والبحث عن غيرهم راجياً الخيرَ في غيرهم.

كذلك من يفتي الناس، إذا علم أن من جاءه يطلب الفتيا لا يريد التزاماً بالحق، وإنما يطلب الرخصة لتكون ذريعة مفضية إلى المنكر، أو يبتغي المِراء، فإنه يردعه أو يعرض عنه.

قال سفيان بن عيينة: «كان أهل العلم إذا سئلوا (يعني عمن قتل مؤمناً متعمداً) قالوا: لا توبة له، فإذا ابتلي رجل قالوا له: تُبْ»[1]

ح- من حكم بين الناس فإنَّه يحكم بالعدل، ولا يجرمنَّه شنآن قوم على ترك العدل، فالعدل به تقوم السماوات والأرض، وهو عزيز، والتهاونُ في تحري العدل كالتهاون في تحري الصدق، والعدل أخص، وهو واجب على كل مسلم، فينبغي تنشئة الولدان، وإكراه الكهول، ومجاهدة النفس عليه حتى تتعوده، وإنما الخير بالعادة. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «تَعَوَّدُوا الْخَيْرَ فَإِنَّمَا الْخَيْرُ بِالْعَادَةِ»[2].

ط- كان رسول الله ﷺ يقيم العدل، لا تأخذه في الله لومة لائم. وإنه لما أراد أسامةُ بن زيد رضي الله عنه أن يشفع في المخزومية، قال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟!» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[3].

ك-من ولي من أمر المسلمين شيئاً فلا يخَافُ في الله لومة لائم، وأما من لم يكن والياً إذا خشي أن يُفتح له باب شر، فليُقْبِلْ على نفسه، ولا يضره من ضلّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾.

وعَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: لَا أَخَافُ فِي اللَّهِ لومةَ لائم خيرٌ لِي أَمْ أُقْبِلُ عَلَى نَفْسِي؟ قَالَ: «أَمَّا مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَمَنْ كَانَ خُلْوًا، فَلْيُقْبِلْ عَلَى خَاصَّةِ نَفْسِهِ، وَلْيَنْصَحْ وَلِيَّ أَمْرِهِ»[4].

الفصل الثالث قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا

(١) سنن سعيد بن منصور (٦٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (٨٧٥٥، ٩١٥٦) من طريق الثوري وزائدة عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن أبي الأحوص عن عبد الله به. وإسناده جيد أو صحيح.

(٣) صحيح البخاري (٦٧٨٧) كتاب الحدود - باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع. وصحيح مسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود - باب قطع السارق الشريف وغيره.

(٤) سنن سعيد بن منصور (٨٤٧) قال: نا عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن الزهري، عن السائب بن يزيد به. وإسناده صحيح.

﴿مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

المبحث الأول: سبب النزول

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ[1]، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي: «أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ» قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، فَأَهْرِقْهَا. فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ. فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «صَبَّحَ أُنَاسٌ غَدَاةَ أُحُدٍ الخَمْرَ، فَقُتِلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ جَمِيعًا شُهَدَاءَ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا».[3]

المبحث الثاني: أهم أقوال علماء التفسير

قال ابن أبي حاتم: «أخبرني أبي، قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى، قال: قال لي الشافعي في قوله عز وجل: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾: لم يقربوا ما حرم عليهم».[4]

قال الطبري: «﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ يقول تعالى ذكره للقوم الذين قالوا إذ أنزل الله تحريم الخمر بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة: ٩٠): كيف بمن هلك من إخواننا وهم يشربونها، وبنا وقد كنا نشربها؟

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منكم حرج فيما شربوا من ذلك في الحال التي لم يكن الله تعالى حرّمه عليهم.

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: إذا ما اتقى الله الأحياءُ منهم، فخافوه

---

(١) قال أبو عبيد في ((غريب الحديث)) (١٧٧/٢): هُوَ مَا افتضخ من البُسر من غير أَن تمسه النَّار. قال ابن منظور في ((لسان العرب)) (٤٥/٣): الفضخ كسر كل شيء أجوف كالرأس والبطيخ.

(٢) صحيح البخاري (٤٦٢٠) كتاب تفسير القرآن - باب ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ..﴾ =وصحيح مسلم (١٩٨٠) كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر. وأخرجه الترمذي من حديث البراء بن عازب (٣٠٥١) قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، قال: قال البراء: مات ناس من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب النبي ﷺ فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ قال: فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وظاهره الصحة. وقد أخرج الطبري هذين الحديثين (٦٦٢/٨).

(٣) صحيح البخاري (٤٦١٨) كتاب تفسير القرآن - باب ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

(٤) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم ص٢٢٩.

وراقبــوه في اجتنابهم ما حرم عليهم منه، وصدقوا الله ورسوله فيما أمرهم ونهاهم، فأطاعوهما في ذلك كله.

﴿وَعَـمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقــول: واكتسبوا من الأعمال ما يرضاه الله في ذلك ممَّا كلفهم بذلك ربهم.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ يقول: ثم خافوا الله وراقبوه باجتنابهم محارمه بعد ذلك التكليف أيضاً، فثبتوا على اتقاء الله في ذلك والإيمان به، ولم يغيروا ولم يبدلوا.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ يقول: ثم خافوا الله، فدعاهم خوفهم الله إلى الإحسان، وذلك الإحسان هــو العمــل بما لم يفرضه عليهم من الأعمال، ولكنه نوافل تقربــوا بها إلى ربهم طَلَبَ رضاه وهرباً من عقابه.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: والله يحب المتقربين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاها. فالاتقاء الأول: هــو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة بــه والعمل، والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبــات على التصديق وتــرك التبديل والتغيير، والاتقــاء الثالث: هو الاتقــاء بالإحسان والتقرب بنوافــل الأعمال. فإن قال قائل: ما الدليل علــى أن الاتقاء الثالث هو الاتقاء بالنوافل دون أن يكون ذلك بالفرائض؟ قيل: إنه تعالى ذكره قد أخبر عن وضعه الجناح عن شاربي الخمر التي شربوها قبــل تحريمــه إياها إذا هم اتقوا الله فــي شربها بعد تحريمها وصدقــوا الله ورسوله في تحريمها وعملوا الصالحات من الفرائض، ولا وجه لتكرير ذلك»[1].

قــال الثعلبــي: «﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَـمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أي: شربــوا الخمر. نظيره قوله تعالــى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ (البقرة:٢٤٩). وفيما أكل من الميسر، لذلك ذكر الطعم؛ لأنه بلفظ جامع.

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ الشرك.

﴿وَّءَامَنُواْ وَعَـمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ الخمــر والميسر بعــد تحريمها. ﴿وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما حرّم الله عليهم كله»[2].

قــال ابن عطيــة: «سبب هذه الآية فيما قال ابن عباس[3] والبــراء بن عازب وأنس بن مالك:

(١) تفسير الطبري (٨/ ٦٦٤-٦٦٥).

(٢) الكشف والبيان (١١/٤٩٥).

(٣) يشير إلى ما رواه الإمام أحمد في ((المسند)) (٢٠٨٨): قال حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «لما نزل تحريم الخمر»، قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾. ولا يصح عن ابن عباس؛ لأنّ سِمَاكًا مضطرب. وكذلك أخرجه الطبري

أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: يا رسول الله، كيف بمن مات منا، وهو يشربها، ويأكل الميسر، ونحو هذا من القول؟ فنزلت هذه الآية.

وهـذا نظير سؤالهم عمَّن مـات على القبلة الأولى، ونزلـت ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ (البقـرة: ١٤٣)، ولمـا كان أمر القبلة خطيراً ومَعْلَمًا من معالم الديـن تخيَّل قوم نقص من فاته، وكذلـك لمـا حصلت الخمر والميسر في هذا الحد العظيم من الذم، أشفق قوم وتخيَّلوا نقص من مات على هذه المذمات، فأعلم تعالى عباده أن الذم والجُناح إنما يلحق من جهة المعاصي، وأولئك الذين ماتوا قبل التحريم لم يعصوا في ارتكاب محرَّم بعد، بل كانت هذه الأشياء مكروهة لم ينصَّ عليهـا بتحريم، والشرع هو الذي قبّحها وحسّن تجنبهـا، و«الجُناح» الإثم والحرج، وهو كلُّه الحكم الـذي يتصف به فاعل المعصية والنسبة التـي تترتب للعاصي، و﴿طَعِمُوٓاْ﴾ معناه ذاقوا فصاعداً فـي رتب الأكل والشرب، وقد يسـتعـار للنوم وغيره، وحقيقته في حاسـة الذوق، والتكرار في قوله ﴿ٱتَّقَواْ﴾ يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم»[1]

قـال السمعاني: «بيّن الله تعالـى أنَّه لا جناح عليهم فيما طعموا في حال الإباحة إذا ما اتقوا وآمنـوا وعملوا الصالحـات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا - في هذا مقدم معنى مؤخر أقوال -: أحدها: أن معنى الأول: إذا ما اتقوا الشرك.

﴿وَّءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا.

﴿وَعَـمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ أي: داموا على ذلك التقوى.

﴿وَّءَامَنُواْ﴾ أي: ازدادوا إيماناً.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ أي: اتقوا بالإحسان في كل محسن، وكل مطيع متق.

والقـول الثاني: أن التقوى الأول: اجتنـاب الشرك، والتقوى الثاني: اجتناب الكبائر، والتقوى الثالث: اجتناب الصغائر، وهذان قولان معروفان في الآية، وفي الآية قول ثالث: أنه أراد به: إذا ما اتقوا قبل تحريم الخمر، ثم اتقوا بعد تحريم الخمر، وقيل هذا لا يصح؛ لأنَّ قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ إنما يصلح للمستقبل لا للماضي؛ فإن حرف «إذا» للمستقبل»[2].

قال الإيجي: «﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ إثم.

﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ ممَّا لم يحرم عليهم.

(٦٦٥/٨).

(١) المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) (٢٣٤/٢).

(٢) تفسير السمعاني (٦٥/٢).

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ الحرامَ.

﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحات.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما حرم عليهم بعد.

﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بتحريمه.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ استمروا على اتقاء المعاصي.

﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ العملَ، ومعناه في الأول: اتقوا الشرك وآمنوا، ثم اتقوا؛ أي: داموا على ذلك وآمنوا وثبتوا عليه وازدادوا إيمانًا، ثم اتقوا المعاصي كلها وأحسنوا العمل.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء»[1].

قال القاسمي: «وهنا مسائل، الأولى: قال بعض المفسرين: إن قيل: لم خصّ المؤمنين بنفي الجناح في الطيبات إذا ما اتقوا، والكافر كذلك؟ قال الحاكم: لأنه لا يصحّ نفي الجناح عن الكافر، وأما المؤمن فيصحّ أن يطلق عليه، ولأن الكافر سدّ على نفسه طريق معرفة الحلال والحرام. انتهى.

وفي «العناية»: تعليق نفي الجناح بهذه الأحوال ليس على سبيل اشتراطها، فإن عدم الجناح في تناول المباح الذي لم يحرم لا يشترط بشرط. بل على سبيل المدح والثناء والدلالة على أنهم بهذه الصفة.

قال الزمخشريّ: ومثاله أن يقال لك: هل على زيد فيما فعل جناح؟ فتقول – وقد علمت أن ذلك أمر مباح– ليس على أحد جناح في المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً، تريد: إن زيداً تقيّ مؤمن محسن، وإنه غير مؤاخذ بما فعل.

قال الطيبيّ: المعنى أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات. وإنما المطلوب منهم الترقي في مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين ومعارج القدس والكمال. وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك، وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة التي يتمكن بها إلى الترقي إلى مرتبة المشاهدة ومعارج «أن تعبد الله كأنّك تراه»، وهو المعنيّ بقوله تعالى: وَأَحْسَنُوا... إلخ. وبه ينتهى للزلفى عند الله ومحبته. والله يحب المحسنين.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ قال الخفاجيّ: وهذا دفع للتكرير، وأنه ليس لمجرد التأكيد

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للإيجي (٤٩٥/١).

لأنه يجوز فيه العطف بـ «ثم» كما صرح به ابن مالك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ (التكاثر: ٣- ٤)؛ بل به باعتبار تغاير ما علق به مرة بعد أخرى. والله أعلم.

الثانية: الإحسان المذكور في الآية: إمّا إحسان العمل، أو الإحسان إلى الخلق، أو إحسان المشاهدة المتقدم، ولا مانع من الحمل على الجميع»[1].

قال صاحب المنار: «﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ لطعام ما يؤكل، والطعم (بالفتح) ما يدرك بذوق الفم من حلاوة ومرارة وغيرهما، يقال: طَعِمَ (كَعَلِمَ وَغَنِمَ) فلان، بمعنى: أَكَلَ الطعام. وَطَعِمَ الشيءَ يَطْعَمُهُ: ذاق طعمه أو ذاقه فوجد طعمه منه. استُعمل في ذوق طعم الشيء من طعام وشراب يؤخذ قليل منه بمقدم الفم.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأحياء والميتين والشاهدين والغائبين.

﴿جُنَاحٌ﴾ إثم ولا مؤاخذة.

﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أكلوا من الميسر أو شربوا من الخمر فيما مضى قبل تحريمها، ولا في غير ذلك مما لم يكن محرماً ثم حُرِّم.

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ أي: إذا هم اتقوا في ذلك العهد ما كان محرماً عليهم، ومنه الإسراف في الأكل والشرب من المباح.

﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بما كان قد نزله الله تعالى.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي كانت قد شرعت، كالصلاة والصوم والجهاد.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما حرمه الله تعالى بعد ذلك عند العلم به، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بما نزل فيه وفي غيره.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي هي من لوازم الإيمان.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ أي ارتقوا عن ذلك فاتقوا الشبهات تورعاً وابتعاداً عن الحرام.

﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ أعمالهم الصالحات بأن أتوا بها على وجه الكمال، وتمموا نقص فرائضها بنوافل الطاعات. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يبقى في قلوبهم أثر من الآثار السيئة التي وصف بها الخمر والميسر من الإيقاع في العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهما صقال القلوب وزيتها الذي يمد نور الإيمان»[2].

قال السعدي: «﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم.

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٤/٢٤٦-٢٤٧).

(٢) تفسير المنار (٧/٦٠-٦١).

﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولمَّا كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيَّد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك»[1].

المبحث الثالث: المعنى المجمل للآية

لمّا نزل تحريم الخمر، خشي بعض الصحابة الكرام على إخوانهم الذين سبقوهم إلى جوار ربهم، كيف يكون حالهم وقد مات بعضهم في سبيل الله وهي في بطونهم؟

فأنزل الله الآيات مبيّنة أنّ الله لم يكن ليؤاخذهم بما لم يبيّن لهم تحريمه، ولم ينهوا عنه، سواء كانوا أحياء أم أمواتاً، ما داموا مؤمنين بحكمة الله، مسلِّمين بحكمه.

وكرر «التقوى» بما يُفهم منه أن لكل واحدة مقتضاها.

وبيّن فضل الإحسان بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وأحسن ما يقال في الإحسان: ما جاء في حديث جبريل عليه السلام: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2]

المبحث الرابع: الدروس والعبر المستفادة

أ- في سبب نزول الآية بيان سرعة استجابة المؤمنين، وحرص الصحابة على إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وفيه بيان فضل الأموات الصلحاء، وأنهم محل أسوة، فهذا نهج الأولين. وكان عبد الله بن مسعود يقول: «أَلاَ لاَ يُقَلِّدَنَّ رَجُلٌ رَجُلاً دِينَهُ، فَإِنْ آمَنَ آمَنَ، وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ،فَإِنْ كَانَ مُقَلِّدًا لاَ مَحَالَةَ فَلْيُقَلِّدِ الْمَيِّتَ، وَيَتْرُكِ الْحَيَّ فَإِنَّ الْحَيَّ لاَ تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ»[3].

ب- نزلت الآيات لبيان حال من مات ممن كان يشرب الخمر قبل تحريمه، إلا أنها عامة في

---

(١) تفسير السعدي ص٢٤٣.

(٢) صحيح البخاري (٥٠) كتاب الإيمان - باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة. وصحيح مسلم (٨) كتاب الإيمان - باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة.

(٣) أخرجه أبو داود في ((الزهد)) (١٣٢) من طريق الأعمش، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص عن عبد الله به. وهو صحيح. وأخرجه البيهقي في ((الكبرى)) (٢٠٣٤٩) من طريق محمد بن كثير المصيصي، عن الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة عن ابن مسعود به. وهو مرسل.

كل أحد من بعدهم، وأدل شيء على ذلك ما جاء عن محمد بن حاطب، قال: ذُكِرَ عثمان، فقال الحسن بن علي: هذا أمير المؤمنين يأتيكم الآن فيخبركم. قال: فجاء علي، فقال: كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين[1].

وعن عبد الله بن مسعود، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ﴾ إلى آخر الآية، قال لي رسول الله ﷺ: «قيل لي: أنت منهم»[2] [3]

ج- الآيات تبيّن أهمية التدرج في التحريم. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا...».[4]

د- امتاز الجيل الأول من هذه الأمة بسرعة الاستجابة والتسليم؛ لأنهم تأسسوا تأسيساً صحيحاً أفهمهم مقاصد التشريع وحكمته، وكانوا لا يتكلفون ما لا يعلمون امتثالاً لقول الله: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص:٨٦). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عن يقول: «نهينا عن التكلف»[5].

وقد نزل تحريم الخمر، والكؤوس بين أيديهم وعلى راحاتهم، فحال أمر الله بينهم وبين الشفاه المتلمّظة والأكباد المتّقدة.

هـ- دخل أصحاب رسول الله في السلم كافة، بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم، لا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى الله، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى.

و- ظهور حب الصحابة لإخوانهم الذين سبقوهم إلى رحمة الله، وسؤال رسول الله ﷺ عن أحوالهم حتى بعد الممات يدلُّ على إشفاقه عليهم رضي الله عنهم، ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ هكذا وصفهم الله تعالى، ويجب أن تستمر هذه الرحمة والمحبة، وتكون عنواناً للمسلم على أخيه المسلم في كل زمن وعصر.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٢٣١) قال: حدثنا محمد بن بشر، قال: حدثنا مسعر، قال: حدثني أبو عون، عن محمد بن حاطب به. والخبر صحيح.

(٢) صحيح مسلم (٢٤٥٩) كتاب الفضائل – باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما.

(٣) ومعناه أن ابن مسعود من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٩٣) كتائب فضائل القرآن – باب تأليف القرآن.

(٥) صحيح البخاري (٧٢٩٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه.

ز- عندما خضعت النفوس لله وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما اختاره الله، عندها بدأت التكاليف.

ح- المسلم مطالب باليقظة؛ فهو نور أهل الأرض، ينهض بالتكاليف الملقاة على عاتقه، ويضيء للناس دربهم، فلا تصلح له مظاهر العبث من سُكْرٍ وطيش، وما لفَّ لفَّها.

ط- يسعى الإسلام إلى تربية الإرادة وإطلاقها من قيود العادات السيئة، ويتممُ صالح الأخلاق، فكان الخيارُ في الجاهلية الخيارَ في الإسلام إذا فقهوا.

ي- بانحلال العقدة الكبرى عقدة الشرك انحلَّت العقد كلها بشكل تدريجي.

ك- انتصر الإسلام على معركة العقيدة الجاهلية، فكان النصر حليفه في كل معركة قادمة.

ل- سرعة تنفيذ أمر الله والامتثال لشرعه فور معرفته دون تردد، فكُسرت دنان الخمر، وسالت في سكك المدينة، وانتهى الأمر كأنْ لم يكن سُكْر ولا خمر.

م- كان صحابة رسول الله ﷺ شديدي الحذر ممَّا ينقص الثواب، حريصين على كمال الاستقامة.

ن- النص القرآني هو الذي ينشئ الحكم، والشرع لا يحرّم بأثر رجعي، فلا عقوبة إلا بنص.

س- المنهج الرباني الذي يطرق القلوب فتنفتح له مغاليقها، وتتكشف له فيها المسالك والدروب.

ع- الفرد المسلم ليس متروكاً لذاته ولذّاته، فعليه تكاليف لربه ولنفسه ولأهله، وللمجتمع المسلم الذي يعيش فيه، بل للإنسانية كلها، ليدعوها ويهديها.

ف- إن دائرة الحرام في الإسلام ضيّقة، ودائرة الحلال واسعة رحبة، والمحرمات في الإسلام هي التي تؤدي إلى الضرر بالنفس والمال والمجتمع كافة.

ص- على المرء أن يكون محسناً ليحبه الله، ومن أحبَّه الله فقد فاز فوزاً عظيماً.

الخاتمة

إنّ سبيل الله لهي السبيل الفاذّة التي تصلح للأناسيّ، فهي من لدن حكيم خبير، وما سواها فطرائق قدد، تُرْدِي من وطئها حتى يخرَّ على وجهه، فلا يقوم إلا من لوم وحسرة.

ومنهاج الله متكامل، لا يقتحمه نقص، ففيه تفصيل كل شيء، مما يصلح للدين والدنيا معاً، فالأوامر والنواهي كلها تدور في هذا الفلك، لا أمر إلا بالخير، ولا كف إلا عن الشر.

وإن المرء ليحرص على نيل مرضاة الله ومحبته ليظفر بهذه الخيرات، فهو الذي بيده

الخير، وهو على كل شيء قدير.

وإنّ الأعمال التي يحبها الله كثيرة، يسهو عنها من فرّطَ في طلبها، ومن أكبرها: حب المسلمين بحب الخير لهم، فيرحم صغيرهم وكبيرهم، ويشفق عليهم ما داموا غير مكابرين على الحق، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء، وهذا مندرج في الإحسان. وإن الله أودع هذه الرحمة فيمن جعلهم أسوة لنا، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام امتدحه الله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾، ونبينا ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾، وأصحاب نبينا ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وهذا خليفة رسول الله، أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه، كانت الرحمة من أظهر صفاته، وكذلك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، مع شدة في الحق، وسائر الذين أثنى ربنا تبارك وتعالى عليهم، ورضيهم للعالمين أسوة، وشهداء على الناس.

هذا، وإنَّ سائر أعمال القلب لهي سبيل الفلاح؛ فإنّه لَلْمضغة التي بها يصلح الجسد كله، ولا يضر المرء قلة عمله ما داوم عليه واجتنب الذنب، فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإنْ قلّت. وإنّ الصالحات لَيَجُرُّ بعضها بعضاً.

وإنّ من فضل الله على عباده أنْ بيّن لهم سبيل الرشاد؛ فلا حجة بعدُ للغافلين، ومن علِم فَلْيَعْمَل، ومن لم يعلم فَلْيَتَعَلَّمْ وَلْيُعَلِّمْ؛ فقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم أن يبيّنوه للناس، ولا يكتموه.

سائلين الله عز وجل أن يجعلنا ممن يحبهم، وأن يوفّقنا لما فيه صلاح أمرنا، وأن لا يزيغ قلوبنا، إنَّه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونِعم الوكيل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، معلّم الخير، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المصادر والمراجع

١. آداب الشافعي ومناقبه، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ه.

٢. الألفاظ الكتابية، المؤلف: عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣. التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر،

١٩٨٤م.

٤. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ه.

٥. تفسير القرآن للسمعاني، أبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي، تحقيق ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٦. التفسير الكبير، المؤلف: محمد بن عمر، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ه.

٧. تفسير المنار، المؤلف: السيد محمد رشيد رضا الحسيني القلموني، دار المنار، الطبعة الثانية، ١٣٦٦هـ.

٨. تفسير سفيان الثوري، أبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٩. التفسير لعبد الرزاق، أبي بكر، عبد الرزاق بن همام الحِمْيَريّ الصنعاني، تحقيق: د.محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٠. تهذيب اللغة، المؤلف: الأزهري محمد بن أحمد، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٢. جامع البيان، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن الحسيني الإيجي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٤. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ.

١٥. الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

بـن مخلوف الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض، وعـادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٦. حاشيـة السندي على سنـن النسائي، المؤلـف: أبو الحسن نور الديـن السندي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

١٧. الذريعـة إلى مكارم الشريعة، المؤلف: الراغـب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

١٨. زاد المسيـر فـي علم التفسير، المؤلـف: أبو الفرج عبد الرحمن بـن علي ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٩. الزهـد لأبي داود السجستاني، سليمان بن الأشعـث، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم عباس، دار المشكاة، حلوان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٠. الزهد لأحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢١. الزهد لوكيع، وكيع بن الجراح الرؤاسي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٢٢. السنـة، المؤلـف: أبو بكر أحمد بن محمد بـن هارون بن يزيد الخـلّال، تحقيق: عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٣. السنـة، المؤلف: محمد بن نصر بـن الحجاج المروزي، تحقيق: سالـم أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٤. السنـن الكبرى، المؤلف: أبو بكـر أحمد بن الحسين الخسروجـردي البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٢٥. سنـن سعيد بن منصـور، أبي عثمان، سعيد بن منصور بـن شعبة الجوزجاني، تحقيق: د. سعـد بن عبـد الله آل حميد، وخالد بن عبد الرحمن الجريسـي، دار الألوكة للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

٢٦. صحيـح البخـاري، أبي عبـد الله محمد بن إسماعيـل، تحقيق: محمد زهيـر بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٧. صحيح مسلم، أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٨. غريب الحديث، المؤلف: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: حسين محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٢٩. فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير – دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٠ القاموس المحيط، المؤلف: أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ.

٣١. القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز على ناظمة الزهر للإمام الشاطبي، المؤلف: رضوان بن محمد أبو عيد المخللاتي، تحقيق: عبد الرزاق بن علي، مطابع الرشيد، ١٤١٢هـ.

٣٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، دار التفسير، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

٣٣. لسان العرب، المؤلف: أبو الفضل، محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٤. المجموع في ترجمة الشيخ حماد بن محمد الأنصاري، عبد الأول بن حماد الأنصاري، الطبعة الأولى.

٣٥. محاسن التأويل، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٧. المسند لأحمد بن حنبل، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٨. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، المؤلف: إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ه.

٣٩. المصنَّف لابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

٤٠. معالـم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.

٤١. المعجم الكبير، المؤلف: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

٤٢. مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٤٣. المنهـاج شرح صحيـح مسلم بن الحجاج، المؤلـف: أبو زكريا محيـي الدين بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٤٤. الموطـأ، المؤلف: مالـك بن أنس الأصبحـي العماني، تحقيق: سليم بـن عيد الهلالي، مجموعة الفرقان، ١٤٢٤هـ.